الفصل السابع والعشرون

بلاد شمشون

في السابع من شهر حزيران/ يونيو سنة 1192م، بلغت الحملة الصليبية أوجها. انطلقت قوات الحصار، في جو من الفرح والترقب، من أرض الفلسطينيين وسلكت الطريق القديمة المؤدية إلى أورشليم. الأجواء كانت تزخر بالتصميم والعزيمة وظهرت سماحة النفس جليةً على وجوه الجميع. في أثناء بناء عسقلان، وُضِعت التفاوتات الطبقية جانباً وظل هذا الوضع سائداً. وانتشرت بين الفرسان والضباط كما بين الخدم وصغار الفرسان روح الحميمية والجَذَل إذ «إنّ الطيبة تنبثق من القوة» حسب كلمات لغز شمشون. اتخذت أنشودة «انقذوا، انقذوا الضريح المقدس Sanctum Sepulcrum Adjuva» معنى ملموساً. وعادت الأناشيد تنطلق من حناجرهم، ولا سيما نشيد بعنوان: «Chantera por mon coraige» الذي تقول لازمته: «أيها الرب الكريم، عندما يصرخون: إلى الأمام، قدّم العون للحجّاج فأنا أخاف عليهم. إن العرب لخائنون». لقد أوشكوا على إتمام حجهم. هلّلويا! استرجعت القوات الصليبية روح ڤيزيلي.

فيما كانوا يخرجون من عسقلان ويعبرون نهراً عذب المياه للدخول إلى أرض شمشون، شكّلوا مشهداً ولا أبهى. مشى ريتشارد في الطليعة على صهوة

حصانه القبرصي المهيب متطلعاً للسيطرة على العالم بأسره تماماً كما لو أنه شمشون. كان الملك باهراً، واثقاً بنفسه، عملاقاً بين رجال عاديين كما لو أنه قادر كمثل شمشون أن يربط ثلاثمائة ثعلب، أَو يذبح الأسد بيديه العاريتين، أَو يقتل الآلاف من أعداءه بضربة من فك حمار. وكشف الملك عن التناغم الذي تتمتع به قضيته العادلة، كما طرح المشاغل التي تجذبه لدياره جانباً لفترةٍ من الزمن. وأعقبه طابور جَمَع الألوان المختلفة، وصخب وقع الحوافر، والغبار المتصاعد منهم، والفولاذ اللامع، والأناشيد. خفقت في الهواء والشمس اللاذعة رايات الأسَر الأوروبية النبيلة والدرجات الكهنوتية المقدسة ومختلف الشعوب الأوروبية صغيرها وكبيرها. وتخلّل جلبة ألف حصان الضرب المتقطع على الطبول والدفوف، وعويل مزامير القِرَب، والشّوم، وآلات النفخ.

اجتاز الجيش، خلال الأيام الأولى من الزحف، تسعة عشر ميلاً، وعسكر في موقع استراتيجي يعرف بتل الصافية عند تقاطع الطريق الشرقية مع الطريق الشمالية ـ الجنوبية المؤدية من بيت جبرين في الجنوب إلىٰ عماوس في الشمال. قبل خمسين سنة خلت، بنى الصليبيون هنا قلعة ذات أبراج أربعة على إحدى الهضاب من أجل حماية عسقلان من أي احتلال. وصل الآن صليبيو ريتشارد إلىٰ أطلال جديدة إذ هدّم صلاح الدِّين هذه القاعدة منذ عدة سنوات تماماً كما فعل في قلعتها التوأم في بيت جبرين مخلفاً وراءه ركاماً من الحجارة. هنا في وادي أيلة حيث قتل داود جالوت، أكرمهم وادي السنط بالماء الوفير. وظلوا في موقعهم هذا يومين؛ لكنّ هذه الفترةَ من الراحة أفسدها إنذارٌ بنحس فقد توفي فارس وجندي إثر عضة ثعبانين.

فيما كان الصليبيّون قابعين على تل الصافية، علم صلاح الدِّين في القدس من جواسيسه بتحركهم. لا شك بأن نشاطهم هذا ينبىء بالزحف الأخير على المدينة المقدَّسة. أرسل صلاح الدِّين بطلب أمرائه البعيدين لعقد مجلس حربي طارىء. بات من الضروري تحديد مصدر قوة شمشون هذا تحديداً دقيقاً

ومعرفة نقاط ضعفه. وكشف هذه الأمور منوط بهم في غياب «دليلة» تعمل لمصلحتهم؛ فقد اغتيلت كل الدليلات أَو عُدْن إلىٰ ديارهن.

وبانتظار عقد اجتماع برئاسة صلاح الدِّين، اجتاز الجيش الصليبي أحد عشر ميلاً شمال طورون الفرسان وأمضوا ليلة واحدة فقط على قمة إحدى هضابها قبل التحرّك مجدداً والاقتراب من معسكرهم القديم في بيت نوبة. ها هم يعودون مجدداً إلىٰ وادي أيالون حيث طلب يوشع من الله تجميد الشمس والقمر حتى يتمكّن من الانتقام لنفسه من العموريين. عادوا من جديد إلىٰ المكان الذي اضطروا لإخلائه في الشتاء المنصرم بسبب الأمطار والوحول. إلاَّ أنّ الأحوال الجوية كانت مغايرة الآن. فهم في فصل القتال الأمثل. وباتت أورشليم على بعد اثني عشر ميلاً.

أطلق صلاح الدِّين إنذاراً حاداً بالخطر. كالملسوع أصدر أوامره للدفاع عن أسوار المدينة وأمر بتكثيف الهجوم على خطوط التموين الصليبية من البحر. عزاؤه الوحيد تمثل بوصول قادة رفيعي المرتبة. ووقف أخيراً إلىٰ جانبه رجله الحكيم الكردي المشطوب الوجه بعد أن وقع أسيراً شخصياً في يد ريتشارد عقب سقوط عكّا وكلّف تحريره ثلاثين ألف قطعة ذهبية. قدم بدر الدين دولدرين، سيّد تلّ باشر التي كانت سابقاً قلعة صليبية قريبة من نهر الفرات، على رأس كتيبة ضخمة من الأتراك. ووصل أيضاً أبو الهيجاء السمين الذي كان متمرساً في النزاعات الداخلية التي ضربت شمال سوريا، وقائداً قديراً على الرغم من الاضطرار لحمل جسده الهائل السمنة على كرسي ضخمة. وما ينطوي على أهمية أكبر: الإرسال في طلب ابن صلاح الدِّين الملك الأفضل من حلب حيث كان يعاقب حفيد شقيق السلطان على وقاحته وجسارته. واتخذ جنوده الذين كان البعض منهم تحت إمرة ابنٍ آخر من أبناء صلاح الدِّين مواقعهم على الحدود الغربية.

عقد الأمراء أخيراً مجلسَهم الحربي في فسطاط السلطان. وكانوا جميعاً

على يقين أن جهادهم قد وصل إلىٰ اللحظة المحتومة. أول المتكلمين كان بهاء الدين، مستشار صلاح الدِّين الرئيسي، وصديقه وكاتبه؛ فطالبهم أن يقسموا بأرواحهم عند قبة الصخرة:

«إن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لما اشتد به الأمر بايعه الصحابة رضي الله عنهم على الموت في لقاء العدو. ونحن أَولى من تأسّى به (صلى الله عليه وآله وسلم)، والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت، فلعلّ ببركة هذه النية يندفعُ هذا العدو»[1].

عوضاً عن صرخات التأييد، لم تَلْقَ هذه المناشدة غير همهماتٍ تخلو من الحماس بسبب وجود معارضة خفيةٍ شعر بها السلطان. انتظر الأمراء سماع كلام سيدهم. لكنه بقي لفترة طويلة من الزمن ملتزماً الصَّمت متفكّراً خافضاً عينيه، متصالب الرجلين، ساكناً على وسادته، شابكاً يديه أمامه. لم يجرؤ أي أمير على قطع تأملات السلطان تعبيراً عن احترامهم لصمته، وظلوا متوترين قلقين متخاصمين. لقد جلسوا ساكنين «كأنّ على رؤوسهم الطير».

أخيراً رفع صلاح الدِّين رأسه وتوجه للحضور بقوله: «اعلموا أنكم جنود الإسلام اليوم ومنعتُه. وأنتم تعلمون أنّ دماءَ المسلمين وأموالهم وذراريهم معلَّقةٌ في ذممكم، فإنّ هذا العدو، ليس له من المسلمين من يلقاه إلاّ أنتم. فإن لويتم أعنتكم ـ والعياذ بالله ـ طوى البلاد كطي السجل للكتب، وكان ذلك قدْحاً في حقّكم، فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا، وأَكلتم مال بيت المال. فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم. والسلام»[2].

ساد الصمت المكان من جديد إلىٰ أن قطعه المشطوب بقوله:

«مولاي، نحن مماليكك وعبيدك. وأنت الذي أنعمتَ علينا وكبرتَنا،

(1) ابن شدّاد، ص 216.

(2) المصدر السابق، ص 216.

وعظمتنا وأَعطيتنا وأَغنيتنا، وليس لنا إلاَّ رقابنا وهي بين يديك. والله ما يرجع أحدٌ منا عن نصرتك حتى يموت»[1].

سُمِعت من جديد تمتمات التأييد التي يبدو أنها أرضت صلاح الدِّين. ثم انتقل الجميع لتناول وجبة عشاء كئيبة وانسحب بعدها كل إلىٰ مركزه.

لم يمضِ يومٌ على ذاك المجلس حتى ظهر الخلاف بين أعضائه. أرسل أبو الهيجاء السمين رسالةً سرية للسلطان جاء فيها: «اجتمع عندي جماعةٌ من المماليك والأمراء وأنكروا علينا موافقتنا لك على الحصار والتأهب له، وقالوا لا مصلحة في ذلك، فإنّا نخافُ أن نُحصر ويجري علينا ما جرى على أهل عكا، وعند ذلك تؤخذ بلاد الإسلام أجمع، والرأي أن نلقى العدوَّ مصافاً، فإنْ قدّر الله تعالى أن نهزمهم ملكنا بقية بلادهم، وإن تكن الأخرى سلم العسكر ومضى القدس»[2].

أثار هذا التقدير قلق السلطان ولكن رسالة الرجل السمين انطوت على تحذير: «إنك إن أردتنا فتكون معنا أَو بعض أهلك، حتى نجتمع عنده، وإلاَّ فالأكراد لا يدينون للأتراك، والأتراك لا يدينون للأكراد»[3].

اضطرب السلطان من وجود هذه التفرقة والانقسامات في صفوف رجاله. إن التخلي عن القدس عنده مثل التخلي عن الدين، وتشويه ذكرى معراج رسول الله، وتضييع ثالث أقدس مقام إسلامي. لم تتحمّل طبيعة صلاح الدِّين المتدينة فكرة انتهاك المحرمات هذه. أما خبرتُهُ العسكرية فقد وافقت على فكرة إخلاء المدينة. لقد كان أمراؤه على حق فحصر قواته بأسرها داخل حيِّز ضيق مغلق تطوّقه أسوار المدينة ضرب من الجنون. وهم بذلك ينصبون لأنفسهم الفخ ويعرّضون أنفسهم للحصار والتجويع وفي آخر المطاف للسحق والذبح.

---

(1) المصدر السابق، ص 216.

(2) المصدر السابق، ص 216.

(3) المصدر السابق، ص 216.

وجد السلطان نفسه في مأزق يتأرجح بين المشاعر والحسّ العملي.

تردّد لعدة ليال. وعايش صديقه بهاء الدين اضطراباته الليلية حتى بزوغ الفجر عندما علا صوت المؤذن في الجامع الأقصى يدعو للصلاة: الله أكبر! حي على الصلاة! الصلاة خير من النوم! تدافعت الكلمات العربية من فوق الحجارة القديمة.

بعد أن توضأ الرجلان، طلب بهاء الدين الإذن بالإدلاء برأيه بصراحة فأَذِن له: «المولى في اهتمامه وما قد حمّل نفسه من هذا الأمر مجتهد فيما هو فيه. وقد عجزت أسبابه الأرضية، فينبغي أن يرجع إلى الله تعالى، وهذا يوم جمعة، وهو أبرك أيام الأسبوع، وفيه دعوةٌ مستجابة ـ في صحيح الأحاديث ـ ونحن في أبرك موضعٍ نقدر أن نكون فيه في يومنا هذا.. فليتصدق السلطان بشيءٍ خفية، وتصلي بين الأذان والإقامة ركعتين تناجي فيهما ربك، وتفوض مقاليد أمرك إليه، وتعترف بعجزك عما تصديت له، فلعل الله يرحمك، ويستجب دعاءك»[1].

عمل السلطان بالنصيحة. وبين الأذان لصلاة يوم الجمعة والإقامة، سجد الرجلان في الجامع الأقصى وصليا سوياً. وراقب بهاء الدين بطرف عينيه سيده ومعلّمه يصلّي ركعتين. كانت الكلمات تخرج من فيه بصعوبة. ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ انهمرت الدموع من مقلتي صلاح الدِّين وسالت على وجنتيه الرقيقتين وبلّلتا سجّادة الصلاة.

أعلن عن قراره بعد بضع ساعات. ينسحب القسم الأعظم من الجيش ولا يبقى سوى عدد قليل في القدس بقيادة حفيد شقيقه مجد الدين. حثّته الرغبة في الشهادة بوصفه قبطان مركب الإسلام على البقاء في المدينة. ولكنّه أُقنع

(1) المصدر السابق، ص 217.

بالعكس فرحيلُه من مصلحة الإسلام. ويجب أن يضحّى بالقدس سعياً وراء مصلحة كبرى وكان نشيدهم كترتيلة وفاة:

أيها الساقي، املأ كأسي

فالشغف يغمر قلبي.

يوم سعدي هو اليوم الذي أراك فيه

أنت مكتملٌ اكتمالَ البدر

رشاقتك تفوق رشاقة غصن الصفصاف

يعبق البستان برائحة عطرك

وجمالك يجعل الأزهار كلّها تَذْبَل.

II

دلائل مزيّفة وهجمات مضللةٍ

في هذه الأثناء، استقرّ ريتشارد في «بيت نوبة» بانتظار وفود الكونت أوف شامباني. كان هنري قد أُرسل إلىٰ عكّا وصور لتجميع المشرّدين والمتسكّعين ومرافقة معدّات الحصار. لم يكن ثمة شك في الخطر الذي تتعرّض له الرحلة من عكّا إلىٰ معسكر الصليبيين الأمامي. فلا بد أن المناطق الريفية المحيطة كانت تزخر بالعدو. كان قد بدأ يتلقى تقارير عن غزوات عنيفة على طريق التموين المؤدية إلىٰ يافا.

وخلال إحدى المناوشات، انقضّ مائتا خيّال تركي من التلال على الحرس الخلفي لقافلة فرنسية وهم يطلقون صيحات الحرب «نصر الله والفرج». تسبَّب هذا الهجوم بموت حارسين ورُمي عن صهوة حصانه إسبتاريّ فلمنكي

جِلف كان حماسه لوحده كفيلاً بإرساله إلىٰ الفارس التركي ولكنه تمكن من إنقاذ حياته بأخذ حصان ضابط (تعرّض للقتل). حتى هجوم الإسبتاريين وفرسان الهيكل لم يزرع الخوف في قلوب الأتراك الذين ثبتوا في مواقعهم وردوا على الهجوم المضاد بهجوم آخر. ولولا تدخّل أسقف سالزبوري الذي سارع لنجدة الفرنسيين لهُزموا هزيمةً نكراء.

وصف أحد المؤرخين تلك الوقعة على النحو التالي: «يا له من قتال عنيف. كنت ترى الرجال يتلقون الضربة تلو الضربة، ثم بسرعة لمعت نصال السيوف، وتواجه الطرفان مواجهة عنيفة، فكم من أعمال بطولية وجريئةٍ وقعت، وكم من خيَّالٍ سقط عن جواده».

خضع الفارس المفرط الحماس روبرت أوف بروغز Robert of Bruges لمحاكمة عسكرية بتهمة عدم الانضباط، وتعريض حياة زملائه للخطر. إذ كانت ذكرى معركة الأُقحوانة التي وقعت منذ بضع سنوات لا تزال حيّة في الأذهان. لم تكن القوى الصليبية تتحمّل فقدان فارس واحد بدون داع. ولكن الرهبان العسكريين سامحوه واكتفوا بتوبيخه واستلهموا الغفران من الفصل الثالث من كتاب سفر صفنيا «في ذلك اليوم لا تحزن من كل أعمالك التي تعدّيت بها عليّ. لأني حينئذ أنزع من وسطك مبتهجي كبريائك ولن تعود بعدُ إلىٰ التكبر في جبل قدسي». [سفر صفنيا/ الإصحاح الثالث/ 11].

بعد يوم من وصول الجيش إلىٰ بيت نوبة، علم ريتشارد بأنّ الأتراك ينصبون الكمائن على بُعد عدة أميال غرباً عند ينبوع عماوس المقدس. في هذا المكان بالذات مشى المسيح بعد موته وقيامه بمعية تلميذين من تلامذته ولم يتعرفا عليه. حكي أن مياه عماوس مقدسة وتشفي العلل. لم يَسَع ريتشارد استيعاب فكرة إمكانية تدنيس الوثنيين لهذا المكان ولذلك أعد العدّة لطردهم.

قبيل بزوغ الفجر، هاجم العصابات المقاتلة على حين غرّة وقتل عشرين منهم. وكان في عديدهم رسول صلاح الدين الرسمي ولكنّ الصليبيين أحجموا

عن قتله إذ كانت قيمته حيّاً أكثر بكثير منه ميتاً. عزّزت هذه الرياضة معنويات ريتشارد ورجاله فاتجهوا نحو التلال الدائرية بحثاً عن المزيد من المشاكل. لم يعوا فعلاً مكان وجودهم فيما تحوّلوا نحو الشرق إلىٰ مكان يُعرف بالنبي صموئيل. التقوا عند وصولهم إلىٰ سلسلة جبال ضيقة ببعض العرب السيئي الحظ. ضرب ريتشارد أحدهم فطرحه عن صهوة حصانه أرضاً وفيما كان يسحب سيفه ذا القبضتين من صدر ضحيته، رفع نظره ورأى من بعيد... أورشليم!

منظر مفاجىء ومروّع. أثار الرعب في قلبه عوضاً عن السعادة. وجودها على مقربة منه، ثلاثة أميال وحسب، عذّبه عذاباً شديداً فقد كانت جميلة جداً وقريبة جداً وفي الوقت ذاته متملصة وربما صعبة المنال. بالكاد يستطيع تحمّل توقه إليها. مثل المدينة كمثل الشعلة المقدَّسة وهو كمثل الفراشة الوضيعة التي سفعت النار جناحيها. وكأي جندي صليبي تائق، حجب عينيه وارتدّ عن الوهج كما لو أنّ النظر إلىٰ أورشليم دون السيطرة عليها يَسِمُه بالعار والمعصية. وقال: «أيها الرب الكريم، أتوسّل إليك. لا تجعلني أعاني من رؤية المدينة المقدَّسة بما أنني عاجز عن تحريرها من أيدي أعدائك».

لاحقاً، عندما شاع قرار صلاح الدِّين بإخلاء المدينة المقدَّسة، كتب المؤرخون بحزن أنه لو كان ريتشارد مع جيشه في تلك اللحظة في المكان الذي يطلق عليه المسيحيون اسم مونجوا، لكان استولى على جائزته في اليوم نفسه. وهناك ببركة القديس جورج...

بعد مرور عشرة أيام، ظهر أمامه شخص سبّب له خيبة أمل قاسية. ففي يوم القديس ألبان St. Alban، أي في الثاني والعشرين من حزيران/ يونيو، قدم رئيس الدير البندكتي الشهير القريب من بلدة النبي صموئيل إلى معسكر ريتشارد. بدا هذا الرجل المهيب مخيفاً بلحيته الطويلة وشعره الملتهب بالشيب. فهو لم يعد يرتدي منذ أن احتل صلاح الدِّين القدس سوى الأسمال

البالية ولم يعد يأكل سوى الأعشاب والجذور المرّة. ولكن قيل إنه قادر على التنبؤ بالمستقبل. وها هو الآن يحمل أخباراً بأنه يعلم مكان الصليب المقدس. ففيما كان صلاح الدِّين يستولي على أورشليم منذ أربع سنوات خلت، عُهِدت إليه مهمة تخبئة بقايا الصليب المقدس، فأحكم الإغلاق عليه داخل جدران كنيسة. استناداً لرواية رئيس الدير، مارس صلاح الدِّين عليه ضغوطات شديدة لمعرفة مكان هذا الأثر المقدّس إلاَّ أنه كذب وأخبره بأنه ضاع أثناء احتلال المدينة. سرعان ما انطلق ريتشارد نحو المخبأ بمعية رئيس الدير وكتيبة كثيرة العدد. لم يجدوا الصليب العظيم عينه بل صليباً خشبياً صغيراً. صرّح رئيس الدير بأن الصليب الصغير مصنوع من الصليب العظيم.

ثم التفت رئيس الدير نحو ريتشارد وتنبأ بأن الملك لن ينجح في السيطرة على الأراضي المقدَّسة. ولإثبات صحة نبوءته، أعلن بأنه سيموت بعد سبعة أيام. ومع أنّ النبوءة ثبّطت من عزيمة ريتشارد، لكنه أعاد الأثر المقدس إلىٰ المعسكر وأقامه في وسطه حيث قدم الجنود إليه لتبجيله وتقبيله. وتوفي رئيس الدير بعد سبعة أيام فعلاً.

فيما كان ريتشارد منشغلاً مع رئيس الدير البندكتي، جاءه جاسوس عربي بإغراء أعظم. فقد عمل عدد من العرب في خدمة الملك إذ كان كريماً معهم ويدفع لهم قطعا فضية عندما يجلبون أخباراً هامة ـ وتوجب على الملك الحذرَ تُجاه أخبارهم كلما شعر بأن الحصول على القطع الفضية دافعهم الوحيد. أخبره هذا الجاسوس عن قافلة ضخمة قادمة من القاهرة تعجّ بالأحصنة والجمال وتحمل كنوزاً مصرية وتتجه جنوباً عبر الصحراء. في بادىء الأمر، ساورت ريتشارد الشكوك بشأن هذه المعلومات المفاجئة؛ ولذلك أمر بضعة رجال يثق بهم بالتنكر بثياب البدو والذهاب لتأكيد الخبر.

وما أن ثبت الخبر، حتى باتت الجائزة مغرية إلىٰ حد يحول دون رفضها. أصيب ريتشارد بفقدان مؤقت للذاكرة كما لو أنه نسي سبب وجوده في الأراضي

المقدَّسة. أورشليم على مسافة قريبة، وأوشكت معدات الحصار على الوصول، ومع ذلك امتطى الملك حصانه المهيب وقاد قوة تعد سبعمائة خيّال، وألف جندي من المشاة، وألف من التركْبلي، وخرج في حملة صيد تجتاز ثلاثين ميلاً نحو الجنوب في الصحراء البعيدة. لم يفتقر يوماً للمتطوّعين طالما تعلّقت العملية بغنيمة بدلاً عن نعمة إلهية. حتى الفرنسيين وافقوا على المشاركة لقاء ثلث الغنيمة.

في غضون يوم واحد، وصلت القوة الغازية إلىٰ تل الصافية واكتشف ريتشارد وجودهم من أعالي التلال. بالطبع كان للمسلمين جواسيسهم أيضاً. وسرعان ما بُلِّغ السلطان بتحركات العدو. سارع السلطان بإرسال رسالة عاجلة إلىٰ القافلة التي كانت تروي أحصنتها وجمالها العديدة عند آبار إبراهيم وإسحق السبعة في بئر السبع في الطرف الجنوبي من الأرض الموعودة. يجب على قادة القافلة تجنّب المواجهة مع الصليبيين الزاحفين بأي ثمن. وأفضل الطُّرق يكمن في الهرولة بالقافلة والتوغّل في المرتفعات الجبلية حتى يسدل الليل ستاره.

تجاهل قادة القافلة المتلبدو الفكر تعليمات السلطان؛ لأنهم كانوا يخشون أن تؤخرهم الطريق المؤدية إلىٰ قمة الجبل، وللارتباك الذي قد يحدثه السير ليلاً. ولم يحدّد كشافتهم بعد إن كان ريتشارد على مسافة قريبة منهم؛ لذلك فضلوا أن يندفعوا باتجاه القدس من أقصر طريق؛ لكنهم مكثوا في مكانهم لليلةٍ واحدة كانت أطول مما ينبغي بانتظار بزوغ الفجر كي يتمكّنوا من الارتحال في ضوء النهار. وهكذا استفاد الصليبيّون من قلّة كفاءة فريستهم. انقسمت القافلة، لأسباب مجهولة إلىٰ ثلاثة أقسام تحوّل قسم منها نحو الشرق على طريق الحج حول الطرف الجنوبي من البحر الميت باتجاه الكرك، فيما سلك قسم آخر الطريق الصحراوي متخطياً الخليل نحو بيت لحم.

وصلت قوة الغزو في ليلتها الثانية إلىٰ تل الحسْي عندما وصلت ريتشارد معلومات تفيد بأنّ القسم الثالث من القافلة يروي دوابه عند أسفل تلال الخليل

على مسافة أربعة عشر ميلاً نحو الجنوب في مكان تتوافر فيه المياه والمستنقعات. أُرسل عدة كشافة في لباس البدو للتأكد من صحة البلاغ (روى المؤرخون المسلمون لاحقاً أن ريتشارد شخصياً وضع لباس البدو وذهب لإلقاء نظرة على القافلة).

تحركت القوة الغازية بسرعة ولكن بهدوء تام في ضوء القمر. وهاجمت طريدتها المثقلة بالنفائس عند الفجر عندما كان أعضاء القافلة يحمّلون الجمال. أجفل الحراس وتراكضوا في شتى الاتجاهات كمثل الأرانب أمام كلب الصيد. وكعادته، توسّط ريتشارد ساحة المعركة. ولوصف سلوكه في ساحة الحرب، اقتبس مغنيه كلمات هوراس التالية: لقد كان «زهرة البطولات وتاج الشهامة وكسب الجائزة متفوقاً على الجميع». لوّح برمحه بعنف إلىٰ أن تحطّم في النهاية ولم يجد بداً من استخدام سهمه. فيما بعد، وصف مؤرخ مسلم فرار أفراد القافلة المذعورين بازدراء فقال[1]: «فكان الشجاع الأيِّد القوي الذي ركب فرسه، ونجا بنفسه».

كانت المجزرة فظيعة ولكنّ الغنيمة فاقت التصوّر، فقد حصل الصليبيّون على ثلاثة آلاف جمل وما يقارب هذا العدد من الأحصنة، ومئات البغال المحمّلة بالتوابل، والذهب والفضّة، والحرير، والملابس القرمزية والأرجوانية، والأسلحة، والخيم، والقمح والحبوب الأخرى، والأدوية والأموال، بالإضافة إلىٰ معدَّاتٍ عسكرية. لم يستولِ الصليبيّون على مؤونة بهذا الثراء منذ أن سطا ريجينالد دو شاتيون على قافلة منذ ست سنوات خلت ففجّر الحملة الصليبية الثالثة. وبما أنّ البغّالين والجمّالين استسلموا على الفور، فقد أُكرهوا على العمل في خدمة الصليبيين كي يقودوا دوابهم إلىٰ شمال القدس.

(1) ابن شدّاد، ص 214.

وصل خبر الكارثة إلىٰ صلاح الدِّين في مساء اليوم ذاته. فحزن ولكنه استشاط غيظاً حيال القادة المصريين لتجاهلهم أوامره. تحوّلت الكارثة إلىٰ عار. وألقيت على عاتق السلطان مهمة عدم تحويل هذا العار إلىٰ هزيمة شاملة. لقد استقدم عدداً كبيراً من الجنود المصريين للدفاع عن أورشليم. وقد ازداد خط الدفاع ضعفاً بسبب تشرذم الجنود المصريين عند القافلة وباتت الطريق إلىٰ مصر سالكة مفتوحة أمام الصليبيين. ولقد بات من الممكن أن يعبر ريتشارد سيناء ويهاجم مصر طالما صار يمتلك هذا العدد الهائل من الجمال والجياد. لقد أصبح «الأنكتار»، كما كان لقب ريتشارد، من جديد، قائداً لقوّة الإسكندر الأكبر أَو أغسطس قيصر.

ثارت ثائرة السلطان واتخذ إجراء يائساً أخيراً ليحرم العدو من القدس. فأمر بدسّ السم في الآبار، وتلويث الينابيع، وسحق الأحواض في محيط ميلين حول المدينة. لقد كان الماء سبباً لنصره المذهل في حطين منذ خمس سنوات خلت. فليعد التاريخ نفسه. إن تجرأ جنود ريتشارد وتوغلوا داخل هذه المنطقة المسمومة، فعليهم أن يحضروا مياههم معهم. وفي غضون أيام قليلة، طبِّقت هذه السياسة في النَّجد الصخري المحيط بالمدينة على أكمل وجه.

توجّه ريتشارد بالغنائم نحو الشمال ونشوة النصر تغمره غافلاً عن الإجراءات الأخيرة التي طبّقها صلاح الدِّين. في الرملة، قدم الكونت هنري على رأس كتيبة من المتمارضين الذين وقفوا مبهورين أمام هذا العدد الهائل من الجمال والأحصنة. شرع ريتشارد التيّاه بتيه العَظَمة معتبراً نفسه الملك داود بتوزيع الدواب بسخاء على جنوده. ولم تقتصر هداياه على مقاتليه بل بلغت الفرنسيين الواصلين منذ أمد قريب. فقد انطوى قانون الملك داود في صحراء النقب على «أنّ نصيب من يرابط استعداداً للحرب مساوٍ لمن يشارك في المعركة». هذا هو قانون إسرائيل القديم. وربما استعان ريتشارد بكلمات داود حين قال: «احتفظوا بهدية لكم من غنائم أعداء الله!» ذُبحت بضعة جمال

وتحوّل لحمها إلىٰ شواء. ومهما كانت الظروف، ما فتىء اللحم الأبيض ذو الروائح الزكية يحظى بإعجاب الجنود.

لكنْ في غضون أيام من هذه المأدبة، اتخذ الفرح والرضى بالنفس منحى درامياً.

obeikandl.com